دراسات في تاريخ الفكر الإسلامي وعلم التأريخ

من الرواية إلى الوثيقة: تحوّلات المنهج النقدي في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية

قراءة مقارنة في أعمال الطبري والمسعودي و ابن خلدون والمقريزي

From Narration to Documentation: Transformations of Critical Method in Arabic-Islamic Historical Writing

إعداد

بروفيسور إمتياز/ سيد أحمد علي عثمان العقيد

جامعة النيلين /كلية الآداب/ قسم التاريخ

اغسطس 2026 م

المستخلص باللغة العربية

يتتبّع هذا المقال تحوّلات المنهج النقدي في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية عبر قراءة مقارنة لأربعة نماذج متعاقبة: الطبري (ت 310هـ) ممثِّلًا لمرحلة النقد الإسنادي، والمسعودي (ت 346هـ) ممثِّلًا لإدخال معيار العقل والمشاهدة، وابن خلدون (ت 808هـ) ممثِّلًا لتأسيس نظرية العمران البشري بوصفها ضابطًا لتمييز الخبر الممكن من المستحيل، والمقريزي (ت 845هـ) ممثِّلًا لتوظيف الوثيقة الديوانية في التحقيق التاريخي. ويناقش المقال هذا التسلسل بوصفه اتجاهًا عامًا لا مسارًا خطيًا صارمًا، مستندًا إلى الأدبيات النقدية الحديثة حول تاريخ الكتابة التاريخية الإسلامية (روزنتال 1968؛ الدوري 1960؛ خالدي 1994؛ روبنسون 2003)، ويخلص إلى أن هذه الأعمال لا تمثّل مراحل متعاقبة منفصلة بقدر ما تمثّل أدوات نقدية متراكبة ظلّت متعايشة ومتداخلة عبر تاريخ الكتابة العربية.

الكلمات المفتاحية: المنهج التاريخي؛ النقد الإسنادي؛ التأريخ الإسلامي؛ ابن خلدون؛ المقريزي؛ فلسفة التاريخ.

Abstract

This article traces transformations in critical method within Arabic-Islamic historiography through a comparative reading of four successive figures: al-Tabari (d. 923 CE), representing isnad-based criticism; al-Mas'udi (d. 957 CE), who introduced rational and empirical criteria; Ibn Khaldun (d. 1406 CE), who founded the theory of 'umran (social organization) as a criterion for distinguishing the

possible from the impossible in historical reports; and al-Maqrizi (d. 1442 CE), who incorporated chancery documents into historical verification. Drawing on Rosenthal (1968), al-Duri (1960), Khalidi (1994), and Robinson (2003), the article argues that this sequence should be read as a general orientation rather than a strict linear progression, since these critical tools remained overlapping and coexistent throughout Arabic historical writing.

Keywords: historical method; isnad criticism; Islamic historiography; Ibn Khaldun; al-Maqrizi; philosophy of history.

أولًا: مدخل نظري ومنهجي

لطالما شكّلت مسألة تطوّر النقد التاريخي في التراث العربي الإسلامي محورًا من محاور الدراسات الاستشراقية والعربية على السواء. فقد بيّن فرانتس روزنتال في عمله المرجعي أن الوعي المنهجي بمصادر الخبر ووسائل التثبّت منه رافق الكتابة التاريخية العربية منذ نشأتها، لا أنه طرأ عليها متأخرًا١. كما تتبّع عبد العزيز الدوري نشأة علم التاريخ عند العرب بوصفها ثمرة تفاعل بين علوم الحديث والأخبار والأنساب، لا انبثاقًا مفاجئًا لعقل نقدي مستقل٢. وفي السياق ذاته، اقترح طريف خالدي قراءة الفكر التاريخي العربي الكلاسيكي بوصفه نسقًا معرفيًا متعدد الطبقات، تتقاطع فيه رؤى دينية وأدبية وسياسية للمعنى، لا مجرد تراكم منهجي تصاعدي٣.

يقترح هذا المقال إعادة قراءة أربعة أعلام كبار من هذا التراث --- الطبري والمسعودي وابن خلدون والمقريزي - ليس بوصفهم محطات في مسار خطي حتمي ينتقل من "الرواية" إلى "العقل" ثم إلى "الوثيقة"، بل بوصفهم نماذج لأدوات نقدية متمايزة ظهرت في سياقات تاريخية وفكرية محددة، وتفاعلت فيما بينها أكثر مما تعاقبت. فالإسناد لم يختفِ بعد الطبري، والمشاهدة العقلية لم تُلغِ الرواية عند المسعودي، والوثيقة الديوانية عند المقريزي لم تكن غريبة عن العقل الخلدوني الذي سبقه بعقود قليلة. وهذا التحفّظ المنهجي ضروري لتفادي اختزال تاريخ الكتابة التاريخية الإسلامية في تطوّرية تبسيطية لا يسندها فحص دقيق للنصوص، وهو تحفّظ

يتوافق مع ما خلص إليه تشيس روبنسون من أن الأنماط الكتابية الكبرى في التأريخ الإسلامي (السيرة، والتراجم، والحوليات) قد تبلورت مبكرًا نسبيًا وتعايشت طويلًا بدل أن تحلّ إحداها محل الأخرى٤.

ثانيًا: الطبري ونقد الإسناد

أسّس أبو جعفر الطبري (ت 310هـ/923م) في كتابه تاريخ الرسل والملوك لمنهج يقوم على جمع الروايات المتعددة عن الحدث الواحد وتثبيت أسانيدها، مع تقديمها للقارئ مرتّبة دون ترجيح حاسم في الغالب، تاركًا للناظر مهمة الموازنة بينها٥. وقد اعتُبر هذا المنهج امتدادًا لأدوات نقد الحديث النبوي إلى ميدان الخبر التاريخي، إذ ينقل الإسناد معه معيارًا لتقييم درجة الوثوق بالراوي والمروي معًا. غير أن الباحثين المعاصرين نبّهوا إلى أن هذا "الحياد" الظاهري للطبري لم يكن خلوًّا من اختيار تحريري: فاختيار الروايات وترتيبها وحذف بعضها كان في ذاته فعلًا تأويليًا، وإن لم يُصرَّح به٦. ولذلك فإن وصف مرحلة الطبري بأنها "رواية محضة" خالية من أي حسّ نقدي هو تبسيط ينبغي تجاوزه؛ إذ يكشف تحليل بنية الإسناد عند الطبري عن وعي ضمني بتفاوت درجات الروايات، وإن لم يتحوّل هذا الوعي إلى نسق نظري معلن كما سيحدث لاحقًا عند ابن خلدون.

ثالثًا: المسعودي ومعيار العقل والمشاهدة

يمثّل أبو الحسن المسعودي (ت 346هـ/957م) تحوّلًا ملحوظًا في أسلوب التعامل مع الخبر التاريخي، إذ لم يكتفِ بنقل الروايات مسندة، بل أخضعها لمعيار المعقولية والمقارنة بين المصادر، مستفيدًا من ترحاله الواسع ومشاهداته المباشرة للبلدان والأمم٧. ويُعدّ كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر شاهدًا على هذا المنحى، حيث يعلّق المؤلف على الروايات، ويرجّح بينها، ويستدرك على من سبقه، معتمدًا مصادر متنوعة تتجاوز الإسناد الشفهي إلى الرصد الجغرافي والإثنوغرافي. بيد أن هذا الانفتاح المنهجي عند المسعودي لم يكن قطيعة مع الرواية بقدر ما كان توسيعًا لأدوات التحقق؛ فهو -كما تُظهر دراسات الفكر التاريخي العربي- ظلّ يوظّف الإسناد حين يخدم غرضه، ويستدرك عليه بالعقل والمشاهدة حين يقتضي الأمر ذلك، بما يجعل عمله نموذجًا للتراكب لا للانقطاع٨.

رابعًا: ابن خلدون ونظرية العمران

يمثّل عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1406م) نقلة نوعية في تاريخ الفكر النقدي العربي، حين انتقل من نقد الروايات فرادى إلى صياغة إطار نظري كلي لتمييز الخبر الممكن من المستحيل، هو ما أسماه علم العمران البشري. ففي مقدمته الشهيرة، لا يكتفي ابن خلدون بمساءلة سند الخبر أو معقوليته الظرفية، بل يردّه إلى قوانين عامة تحكم الاجتماع الإنساني والعصبية والدولة والاقتصاد، بحيث يُختبر الخبر بمدى انسجامه مع طبائع العمران لا بصحة سنده وحده٩. وقد أجمع كثير من الباحثين المحدثين -على اختلاف مشاربهم- على أن هذا الإنجاز يمثّل من أهم الإسهامات في الفكر التاريخي قبل الحداثة، وإن اختلفوا في مدى إمكان وصفه بأنه "علم اجتماع" بالمعنى الحديث للكلمة، وهي مسألة لا يزال النقاش حولها مفتوحًا في الأدبيات المتخصصة[10].

خامسًا: المقريزي والتحقيق بالوثيقة الديوانية

يمثّل تقي الدين المقريزي (ت 845هـ/1442م) تحوّلًا آخر في أدوات التحقيق التاريخي، إذ استند في مؤلفاته - وأبرزها السلوك لمعرفة دول الملوك والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف اختصارًا بالخطط) - إلى السجلات الديوانية والوثائق الرسمية ومشاهداته الميدانية لأحوال المجتمع المصري في عصره، لا سيما في تعامله مع الأزمات الاقتصادية كالمجاعات والأوبئة[11]. وقد لاحظ الباحثون أن هذا التوجّه الوثائقي لم يكن غائبًا كليًا عمّن سبقه، لكنه بلغ عند المقريزي درجة من المنهجية والتوظيف المباشر للأرشيف الإداري تجعله أقرب إلى ما يمكن تسميته، بحذر اصطلاحي، "تأريخًا وثائقيًا" يوازن بين السرد والوثيقة والملاحظة المباشرة.

سادسًا: قراءة نقدية في فكرة "المسار المتصاعد للتطور التاريخي"

رغم الفائدة التعليمية لتصوير هذا التسلسل - الطبري فالمسعودي فابن خلدون فالمقريزي - بوصفه انتقالًا تصاعديًا من الرواية إلى العقل إلى الوثيقة، فإن قراءة نقدية متأنية تقتضي التنبيه إلى محاذير هذا التبسيط:

الإسناد لم يكن أداة معزولة عن العقل تماما كما يتراءى للكثيرين ، بل كان في جوهره إجراءً عقلانيًا لتقييم مصداقية النقل، كما بيّن الدوري في تحليله لنشأة علم التاريخ عند العرب١٢.

لم يخلُ عمل ابن خلدون من التوثيق بالمصادر المكتوبة والدواوين، كما لم يخلُ عمل المقريزي من النقد العقلي والمقارنة بين الروايات، بحيث يصعب حصر كل مؤرخ في أداة نقدية واحدة حصرًا.

هذا التسلسل الزمني يمثّل - بحسب خالدي - نسيجًا متشابكًا من الأنماط الكتابية (الحولي، والسِّيَري، والطبقاتي) التي تعايشت وتفاعلت أكثر مما تعاقبت في مراحل منفصلة١٣.

وعليه، يقترح هذا المقال التعامل مع السلسلة المذكورة بوصفها "اتجاهًا عامًا" (general orientation) يعكس تزايدًا نسبيًا في وزن أدوات معينة (العقل النظري عند ابن خلدون، الوثيقة الديوانية عند المقريزي) لا بوصفها مراحل منقطعة يُنسخ بعضها بعضًا.

سابعًا: خاتمة

يخلص هذا المقال إلى أن دراسة تطوّر النقد التاريخي في التراث الإسلامي عبر أعمال الطبري والمسعودي وابن خلدون والمقريزي تكشف عن تعدّد أدوات التحقق التاريخي وتراكبها أكثر مما تكشف عن مسار خطي حاسم. فالإسناد والعقل والمشاهدة والوثيقة أدوات تكاملت أكثر مما تعاقبت، وتفاوت وزن كل منها بحسب موضوع كل مؤرخ وسياقه ومصادره المتاحة. ويظل استحضار هذه الأعمال الأربعة مفيدًا في تدريس مناهج البحث التاريخي وفلسفة التاريخ، شريطة أن يُقدَّم بوصفه نموذجًا تحليليًا مرنًا لا تصنيفًا جامدًا، وهو ما تدعو إليه الاتجاهات الحديثة في دراسة تاريخ الكتابة التاريخية الإسلامية.

الهوامش:

1 .Franz Rosenthal, A History of Muslim Historiography, 2nd rev. ed. (Leiden: E. J .Brill, 1968).

2. عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب (بيروت: دار الطليعة، 1960)، ص 55-70.

3 :Tarif Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge . .Cambridge University Press, 1994)

4 Chase F. Robinson, Islamic Historiography (Cambridge: Cambridge University . .Press, 2003)

5. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، 1967)، ج1، ص 12-15.

6. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 60-65.

7. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بيلا (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1965)، ج1، ص 45-50.

8.Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period, chap. 3 .

9. ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي (القاهرة: نهضة مصر، 2004)، ص 35-40.

10 ,R. Stephen Humphreys و ;Robinson, Islamic Historiography, chap. 6 :قارن . Islamic History: A Framework for Inquiry, rev. ed. (Princeton: Princeton University .Press, 1991), chap. 3

11. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1942)، ج1، ص 22-30؛ والمقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد (لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2002-2004).

12. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ص 68-70.

13.Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period, chap. 1 .

قائمة المصادر والمراجع

المصادر الأولية

1. ابن خلدون، عبد الرحمن. المقدمة. تحقيق علي عبد الواحد وافي. القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، 2004.
2. الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، 1967.
3. المسعودي، علي بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق شارل بيلا. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1965.
4. المقريزي، أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1942.
5. المقريزي، أحمد بن علي. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. تحقيق أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2002-2004.

المراجع الحديثة

1. الدوري، عبد العزيز. بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. بيروت: دار الطليعة، 1960.
2. Humphreys, R. Stephen. Islamic History: A Framework for Inquiry. Rev. ed. Princeton: Princeton University Press, 1991.

3. Khalidi, Tarif. Arabic Historical Thought in the Classical Period. Cambridge Studies in Islamic Civilization. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

4. Robinson, Chase F. Islamic Historiography. Themes in Islamic History. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

5. Rosenthal, Franz. A History of Muslim Historiography. 2nd rev. ed. Leiden: E. J. Brill, 1968.